رحلة البطريرك مكاريوس

في ايام القيصر الكسيوس بن ميخائيل ابي القيصر بطرس الكبير ذهب البطريرك الانطاكي مكاريوس العربي النسب والحلبي المولد الى روسيا مرتين . وكان القصد من رحلته الاولى جمع الاحسان لكنيسته . واما الثانية التي كانت بعد عشر سنوات فرحلها تلبية لدعوة القيصر لاجل القضاء على البطريرك الروسي ليكن . وصحب البطريرك مكاريوس في رحلته الاولى رئيس الشمامسة بولس الانطاكي وهو ابنهُ الطبيعي فوصف رحلة ابيهِ التي دامت ثلاث سنوات وصفاً مدققاً مطولاً اجابة لرجاء احد اصدقائهِ من دمشق كما ذكر في مقدمتهِ

وكان بولس هذا محبًّا للعلم كثير المطالعة دقيقاً في الملاحظة فتراهُ يذكر في كتابهِ كل ما رآهُ وسمعهُ في رحلتهِ الطويلة واصفاً البلاد واخلاق اهلها وعاداتهم . والقرى والمدن والمباني الشهيرة وخصوصاً الكنائس والاديرة . وكل الاحتفالات والضيافات في القصور الملكية . والحوادث السياسية التي شاهدها بنفسهِ وكل ما سمعهُ . ووصف اخلاق رجال الدولة والاكليروس واعمالهم وكل من كانت لهُ علاقة بالبطريرك ابيهِ

واتفق ان في الاشهر الثمانية التي قضاها هو وابوهُ في بلاد الفلاخ والبغدان جرت حوادث سياسية مهمة جدًّا في تاريخ تلك البلاد وهي سقوط الامير ياسيليوس لوبولا والفتنة والحروب بين الاحزاب فقتل فيها صهر الامير تيوذاوس خميلنيكي ابن الهيتمن بوغدان خميلنيكي . فهذه الحوادث وجدت فيهِ واصفاً بارعاً واخبارهُ في الينبوع الوحيد كما يقول المؤرخ الروسي كوستاماروف لدرس علاقات الفلاخ والبغدان مع روسيا الصغرى في ذلك الزمان . وقد وصل هو وابوهُ الى روسيا في ازهر ايام القيصر الكسيوس بن ميخائيل وذلك حينما كان يحارب اللاه حرباً كانت عاقبتها الفوز لهُ . وحين بلغ البطريرك ليكن اعلى درجة السلطة والقدرة وشأ ينظم امور الكنائس فكان رأي كوكب اقدم الكنائس الشرقية ثميناً ولازماً جدًّا

والجزء الاكبر من مؤلف بولس الحلبي خاص بوصف اقامتهِ الطويلة مع ابيهِ في روسيا ويحتوي اخباراً عديدة عن كل الحوادث التي جرت فيها قرب ذلك الزمان . فلسعة تنوع مسائلهِ يعدُّ اثمن ما كُتب عن روسيا في القرن السابع عشر . ويفوق من جهات عديدة كل ما كتبهُ السيَّاح الافرنج في ذلك العصر فان اكثرهم حضروا الى روسيا بصفة سفراء لمدة قصيرة ولذلك اضطروا ان يكتفوا بمراقبة ظواهر المعيشة المدنية . ولما كانوا من مذهب غير

المذهب الارثوذكسي كانوا يستغربون ما يرونهُ في كنائس روسيا ولا يفقهون لهُ معنًى . ومن جهة اخرى لم يكن لاهل بلاط القيصر ثقة باسقفاء الغرباء فلذلك كانوا يضعون في منازل السفراء حراساً يراقبون افعال الغرباء و يقررون عن كل ما يرونهُ منهم . وكذلك كان سكان المدينة ممنوعين من الكلام مع خدام السفراء . فلم يكن للسفراء ان يتواصلوا باحد من الناس بغير واسطة الاَّ بالاشراف من مستخدمي الحكومة والاواسط من المستخدمين في الوزارة الخارجية الذين كانوا يحتالون على السفراء و يخفون عنهم حقيقة الامور

وكانت السفراء حين يصلون الى موسكا يأتون الى بلاط القيصر بهدايا من ملوكهم فيزين البلاط احتفالاً بهم لكي لا يبين منهُ للسفراء سوى الجاه والعظمة . ويقال جملة ان الافرنج الذين دخلوا روسيا لم يتمكنوا من مراقبة احوال البلاد الاَّ سرًّا وكلما عرفوا منها بالحقيقة كان على سبيل الصدفة وان عيشة القيصر واكابر الدولة اليومية الاعتيادية بقيت مخفية عنهم تمامًا

اما بولس الحلبي فلم يكن امرهُ كذلك لان البطريرك مكاريوس اباهُ صاحَ في روسيا لجمع الاحسان في ايام القيصر الكسيوس بن ميخائيل الذي كان ممتازاً بالتدين والزهد والاحترام الوافر لارباب الكهنوت وكان البطريرك يكن محتاجاً لتنفيذ مقاصده الى آراء البطاركة الشرقيين التي كانت توافق غاياته . فكان يتلطف بهم و يطلب رضاهم فلذلك استقبل البطريرك مكاريوس بشاشة قلب واحترام كلي . وعلى ما يظهر ان البطريرك مكاريوس اعجب جدًّا القيصر لطو مقامهِ بين الاكليروس ولانسهِ ولطفهِ فلذلك تمكن ابنهُ الطبيعي بولس الحلبي ان يعرف كثيراً مما دار عليهِ الحديث بين القيصر والبطريركين يكن ومكاريوس رأسًا عدا ما كان يراهُ و يسمعهُ . وسهل عليهِ كرجل من خدمة الدين ان يذهب حيثما اراد وكان عارفًا باللغة اليونانية فتمكن من ان يسمع اخباراً عديدة من اليونان القاطنين في موسكا او المترددين اليها من عوام ورهبان . وقد شغف بالطقوس الكنائسية التي كان يشاهدها و يشترك فيها كرئيس شمامسة البطريرك . فاسهب في الكلام على ورع الروسيين وصيرهم الجزيل في القيام للصلاة الطويلة

والنسخة العربية الاصلية من رحلة بولس الحلبي لم تطبع الى الآن ولكن في اوائل سنة ١٨٣٠ اوعزت عمدة المترجمين من اللغات الشرقية الى احد اعضاء الجمعية الملكية الاسيوية في انكلترا وايرلندا العلامة بلفور ان يترجمها الى اللغة الانكليزية عن نسخة حُملت الى انكلترة من الشرق في اوائل القرن التاسع عشر ففي ذلك ونشر ترجمتهُ في كراريس

طبعت من سنة ١٨٢٩ الى سنة ١٨٣٦ ثم جمعت في مجلد واحد . وفي الترجمة خطأ في عدة اماكن وهي ناقصة عن الاصل وذلك لان بلفور كان غريب المذهب فكان يصعب عليه ترجمة وصف الكنائس والطقوس التي هي عديدة جدًّا في مؤلف بولس الحلبي فضجر منها وحذف اكثرها . ومع كل نقائص هذه الترجمة لم تزل الى الآن الينبوع الوحيد لمن يريد ان يعرف ما كتبهُ بولس الحلبي ان كان يجهل اللغة العربية . ولما نشرت ترجمة بلفور استفاد منها عدة علماء ومنهم سانيليف فانهُ كتب بنوداً طبعت باللغة الروسية في جرنال يسمى بيليوتكه دِيپاتشتينيه (اي مكتبة للقراءة) سنة ١٨٣٦ والظاهر انهُ لم يكن تحت يدهِ الاَّ الكراريس الخمس الاولى (من الكراريس التسعة التي طبعها بلفور) فاورد سانيليف في بنودهِ فحواها واقتصر على ترجمة ما هو مستحب منها . وقد وقع سانيليف في اول امرهِ في غلطة غريبة . وهو انهُ لم يفرق رحلة البطريرك مكاريوس الاولى التي كتبها بولس عن رحلتهِ الثانية

ومنذ عشرين سنة ابتدأ الكاهن دمتري بلاغوف يترجم كتاب بولس من اللغة الانكليزية الى الروسية ولكنهُ اكتفى بترجمة نصف اول كراسة وطبع ذلك في جرنال جمعية التاريخ والآثار الامبراطورية سنة ١٨٧٥ ونحو هذا الوقت ظهر في مؤلفات الاكاديمية الروحية في كييف سنة ١٨٧٦ فصل للعلامة أبانسكي وقد كتبهُ مستفيداً من ترجمة بلفور ايضاً وسمَّى فصلهُ المملكة المسكوية في ايام القيصر الكسيوس بن ميخائيل والبطريرك نيكن حسبما كتبهُ رئيس الشماسة بولس الحلبي . وكذلك المؤرخون الروسيون سولوفيوف والمطران مكاريوس وكوستومبروف وبلاكوروف استفادوا كثيراً من مؤلف بولس الحلبي ونقلوا عنهُ

ومن مدة طويلة لفتنا نظرنا الى هذا الاثر الجزيل واشتغلنا بهِ بكل رغبة ونشاط وقد طبعنا منهُ عدة فصول مترجمة . والآن عزمنا على ترجمتهِ كلهِ وطبع الترجمة مع الاصل العربي . ولكننا لم نزل نصادف مانعاً لاتمام هذا العزم الاخير

في روسيا ثلاث نسخ لرحلة مكاريوس . واحدة في دفترخانة وزارة الخارجية في موسكا واثنتان في بطرسبرج احداها في مكتبة القسم العلمي لقلم الاسيوي في وزارة الخارجية . والاخرى في المكتبة العمومية الامبراطورية . وهذه النسخة دخلت في ملك المكتبة المذكورة مع جملة النسخ الخطية التي خلفها الطبيب الذكر الاسقف پادفيري اوسپنسكي اما النسخة التي في موسكا فمنسوخة عن نسخة كانت في دمشق تاريخها سنة ١٧٠٠ لكن حذف منها وصف السفر من حلب الى الاناضول واقامة البطريرك مكاريوس في القسطنطينية

وزيد فيها قائمة اسماء البطاركة الانطاكيين منذ انتقال الكرسي البطريركي الى دمشق وسيرة البطريرك مكاريوس قبل جلوسه على الكرسي البطريركي

وقد تمكنا بعناية مناظري وقنصلخانة وزارة الخارجية في موسكا والمكتبة العمومية الامبراطورية من ان نحظى بالنسخة التي كانت ملك الاسقف بادفيري ونسخة القسم العلي للقلم الاسبوي . فلما قابلناها على النسخة التي في يدنا وجدناها مطابقتين لما تماماً . اما النسخة التي في لوندره فتختلف عن النسخ التي في روسيا . وعلى ما يظهر من ترجمة بلفور ان وصف طريق الرجوع من روسيا هو اكمل فيها مما هو في نسخ روسيا . ولذلك لا يمكن لنا طبع الاصل العربي الى ان نطلع على نسخة لوندره ايضاً

ولما كنا لا نريد ان نؤخر طبع ترجمتنا كلما ما ينقص نسختنا من الترجمة الانكليزية وحذفنا الزائد من نسختنا الموجودة بعد المقدمة بعد ان ترجمناهُ وسنطبعهُ وحدهُ مع بحث خصوصي . ومع ان الاصل العربي ليس مقسوماً الى فصول كما هو في ترجمة بلفور فقد جاريناهُ في تقسيم الفصول لتسهل المطالعة ولمقابلة الفصول التي ترجمناها من اللغة الانكليزية . وعدا ذلك اخذنا من ترجمة بلفور عبارات قليلة وضعناها بين هلالين مكسورين (هكذا [ ]) لنبين انها ليست من النسخة التي في يدنا

واخيراً نقول ان العلامة الشهير المستشرق سيلفستر دي ساسي نشر فصولاً مختصرة في مجلة العلماء Journal des Savants انتقاداً على الترجمة الانكليزية لرحلة البطريرك مكاريوس وكانت فصولهُ تصدر بعد ظهور كل كراسة من كراريس ترجمة بلفور . ففي هذه الفصول ملاحظات ثمينة واصلاح غلطات عديدة في اسماء الاعلام وخصوصاً اليونانية وفي عدة كلمات أُخرى وقع بعضها من تحريف المؤلف العربي لها وبعضها من عدم فهم المترجم الانكليزي فان اعتبرنا ان سيلفستر دي ساسي صحح كل ذلك ولم تكن في يدهِ النسخة العربية دهشنا من سعة علمهِ وتوقد ذهنهِ هذا ولقد استفدنا كثيراً من جميع ملاحظاتهِ ولاحظناها في كل التصحيح الذي اجريناهُ

جرجي مرقس اللمشقي
مستشار الدولة

دير صيدنايا